

الادب بين الجنس والدعارة

حول رواية «اله المناهة»

دار نشر «جروف بريس» في اميركا ، قال المسؤولون عنها انه وثيقة اجتماعية ثمينة عن العصر الفيكتوري ، ولكن هذا ايضا غير صحيح . ان عالم الاجتماع يستطيع ان يعرف من عشر صفحات من كتابات تشارلز بوت او هنري مايهيو اكثر مما يمكن ان يعرفه من الثلاثة الاف صفحة التي يضمها كتاب «حياتي السرية» . ان مؤلفه لم يكن سوى الصورة الذكورية لامرأة مصابة بالفلمة الجنسية nymphomaniac ولم يكن الجنس عنده سوى نوع من التنفيس عن طاقة مكتومة . لقد جرب كل نوع ممكن من انواع التجارب الجنسية لما يزيد على اربعين سنة او نحوها ، ثم قرر ان كل ما فعله كان شيئا ساحرا فاننا وانه ينبغي ان يكتب عنه . فمن الذي يستطيع ان ينكر انه كان على حق ؟ من الصحيح انه لن يقبل على قراءته كل الناس ، ولكنني اقول انه ليس كل الناس يقبلون على قراءة التراجم الذاتية التي يكتبها جنود او سياسيون او رحالة ، وليست هذه حجة تؤخذ ضدهم .

بل ان المرء لا يستطيع ان يقول ان كتاب «حياتي السرية» قد كتب «دون نية بذيئة ودون قصد الاساءة الى الاخلاق» ، او ايا كانت العبارة التي استخدمت ضده . كان الرجل قد استمتع بالجنس ، ولقد استمتع بالكتابة عنه . وكان الرجل شخصا مضجرا قدر العقل ، طالما انه كتب كل تلك الصفحات عن الجنس مدافعا عن فراغ العقل بصورة كاملة . ورغم كل شيء فان الكتاب واقعي ، انه حياة رجل ، انه «حقيقة» ، تماما مثلما كانت «حقيقة» تلك المجلدات الهائلة التي قرأها ويب وزوجته ودرساها من «الاوراق البيضاء» من اجل كتابة مؤلفهما في التاريخ . انني اوافق الان - رغم هذا - على ان هنالك شيئا ما يقف ضد نشر انواع معينة من الحقائق غير السارة - على سبيل المثال ، تفاصيل هجوم جنسي قد تظهر في اثناء محاكمات جرائم القتل ، فان نشر تلك التفاصيل قد يؤدي الى ارتكاب جرائم مماثلة يقلدها فيها المجرمون . ولكن اي شخص يمكن ان يقلد ما قام به مؤلف «حياتي السرية» فانه لن ينزل باحد ضررا حقيقيا ولن يقترب من الحاق مثل هذا الضرر ، وبذلك فان اعتراضني لا ينطبق عليه ، انني لا استطيع ان افكر في اي اساس يصلح لان استند اليه من منع الكتاب - وبالتاكيد لا اجد ما يبرر الحكم على من باعوه بقضاء عامين في السجن - مثلما حدث لبائع الكتب في برادفورد .

ولكن حجة «الحقيقة» يصعب ان تطبق على اعمال دي صاد و «فاني هيل Fanny Hill» التي يمكنني ايضا ان ادافع عن نشرها

في وقت ما من عام 1968 ، نشرت جريدة «الدلي تلجراف» مقالة افتتاحية ، تعني فيها تزايد كمية المشاهد المكتشفة فيما ينشر من اعمال ادبية ، وأشارت الي والى ميس بريجيد بروفي Brigid Brophy باعتبارنا كاتبين «جادين» يهدفان الى المزيد من المبيعات بان يزودا كتبهما بهارات قوامها مشاهد ومواقف كان يمكن ان تؤدي الى ادانتنا في ازمة اقل تحورا . ولم اتحفظ بشيء على هذه المقالة ، لانه من الصحيح انني كتبت عن الجنس في عدد من كتبي بطريقة ما كانت تواجه بالقبول او يسمح بها منذ خمسين عاما . ولكنني لا افكر في نفسي باعتباري من كتاب الادب الداعر Pornography ولكن اذا رغب شخص اخر في ان ينظر اليّ بهذه الصفة ، فلا شك ان هذه مسألة تتعلق بوجهة نظر صاحبها ، ولكن حدث بعد بضعة اسابيع قليلة ، ان اعيد نشر مقالة التلجراف اللندنية في جريدة في نيوزيلاندا ، فكتب قاري نيوزيلاندي خطابا يدافع فيه عني بقوة . اشار هذا القاري الى ان اكثر من صف كتبي تسدور حول موضوعات من مثل الفلسفة والفن والموسيقى والادب ، وانه من بين رواياتي السبع ، لا تحتوي اربع منها الا على القليل من الجنس ، او لا تحتوي شيئا منه على الاطلاق . وقد اقتنمت حينما قرأت هذا الخطاب ، انني لست من كتاب الادب الداعر . حقا ان ناشر كتب من نيوز انجلاندا (احدى الولايات الامريكية - المترجم) قد قدم الى المحاكمة بسبب عرضه كتاب «يومية جيرارد سورم الجنسية» في واجهة مكتبته ، ولكن هذه المحاكمة لم تؤد الى ادانته . وكان رأي القاضي انه رغم انني كنت محروما بشكل كامل من اي موهبة ادبية ، فان الكتاب لم يكن منحطا ولا مسيئا للاخلاق من الناحية الفنية .

وبعد بضعة اسابيع من ظهور مقالة التلجراف ، طلب ميسي احد مكاتب المحاماة ان اتقدم الى احدي المحاكم كشاهد اشهد في صالح ناشر كتب من برادفورد ، كان يحاكم بتهمة بيع كتاب «حياتي السرية» وهو ترجمة ذاتية كتبها احد كتاب العصر الفيكتوري المجهولين ، واجبت على هذا الطلب بانني مشغول لدرجة تمنعني من الذهاب الى يوركشاير - وهذه رحلة تستغرق يومين من كورنول حيث اقيم - ولكنني رحبت بان يمتدوا على قولتي بان الكتاب لم يكن من نوع الادب الداعر ، وانه من الممكن ان ينشر علنا في انجلترا . وأشارت الى انني مستعد لان اكتب خطابا بهذا المعنى . وحينما بدأت كتابة الخطاب ، اكتشفت صعوبة المهمة اللقاة على عاتق الدفاع . ان كتاب «حياتي السرية» ليست له اية قيمة ادبية . وحينما نشرته

وخاصة اذا ما كانت اسعارها مرتفعة ، حتى تعمل الاسعار المرتفعة عمل « المرشح » بالنسبة لصفار السنن من القراء. انسي لا احب دي صاد . وانا لا اظن « هاما » او ذا دلالة خاصة ، بالطريقة التي تظهر بها اهمية ودلالة جان بوليهان والانسة دي بوفوار . ان السروح الاساسية السائدة في كتبه هي روح تمرد يقوم به تلميذ - يشبه كتابة الكلمات القذرة على الجدران . ولكنني لا يمكن ان اقف في صف منع نشر كتبه . اما بالنسبة لكتاب « فاني هيل » فان كيلاند يعترف بانه كتبه لكي يحصل على المال ، وهذا الكتاب مثال نموذجي للكتب التي دعاها سانت بوف بانها « الكتب التي يقرأها المرء بيوحدة » . انه كتاب مسهل ، كتب بشكل جيد ، وليس فيه شيء لا يعرفه بالفعل اي قارئ تجاوز سن الرشد . اننا لا بد ان نعرف بان منع اصدار اي كتاب - وان نعلم انه ليس صالحا لان يستهلكه الجمهور - هو الشبيه الادبي لعملية اعدام مجرم ، او احراق ساحرة ، او القاء معارض سياسي في السجن . وانه لمن الصعب ان ندافع عن مثل هذا الاجراء دون تحيز - وفي تباعد او انزعاج موضوعي . انه لا يمكن الدفاع عن مثل هذا الاجراء الا على اساس من التعصب الفكري وضيق الافق ، مثل الاساس الذي قام عليه « فهرس الكنيسة الكاثوليكية » او احراق النازيين للكتب : اي على اساس تقدمه عقائد جامدة لا بد من القبول بها . يمكننا ان نهجم عملية بيع العقاقير المخدرة دون رقابة ، او مزج عصير الفاكهة بالكحول لكي يشتره صفار السن ، على اساس نفهي وعملي : فان هذه الاعمال يمكن ان تنتج تدمير الاجساد . ونحن نعرف كل شيء تقريبا عن امكانيات الجسد ، ولكننا لا نعرف شيئا عن امكانيات العقل . فهذا النوع من الحجج « النفعية » لا تستطيع ان تنتقل الى مجال الكتب .

انني اوافق على ان كل هذا يبدو في صورة التماس خاص - مثل التماس يقدمه محام ماهر يعرف ان قضيته لا يمكن الدفاع عنها ، فيقرر ان يحاول خلط الصفوف المستقلة ومزج القيم التي لا تتزج . يجتاهني هذا الاحساس وانا اقرأ عددا كبيرا من آراء معارضي الرقابة . ولكنني حينما انظر داخل نفسي ، اجدني مالكا لتسوع بالغ الوضوح والتحدد من الحدس الذي يدلني على ما يكون الادب الداعر وعلى ما لا يدخل في تكوينه . فاسمحوا لي بان احاول توضيح طبيعة هذا الحدس .

وقد يمكنني ان اتخذ نقطة انطلاقي من فقرة جاءت في ترجمتي الذاتية « رحلة نحو البداية » :

ان بطل رواية « طقوس في الظلام » يسيطر عليه الاحساس بان « ثمة » معنى في الوجود الانساني ، وان هذا المعنى يمكن ان يصل اليه العقل - فقط اذا عرف العقل الطريق المؤدي الى العثور عليه . وان واحدة من اكثر « تجارب المعنى » شيوعا تأتي عن طريق الجنس ، ولهذا فان الجنس يقدم « نقطة بداية » ثمينة في سبيل البحث عن المعنى . (وانسي اضع خطا تحت عبارة « نقطة بداية ») لانه يبدو لي انه لا شيء يمكن ان يكون اكثر عمقا من الجنس اذا مارسه الانسان كنوع من التنفيس عن الطاقة - مثلما فعل كازانوف او فرانك (هاريس) .

★ ★ ★

« يمكن » ان يكون الجنس نقطة بداية « للبحث عن المعنى » ، انكار ما اكده سارتر من انه : « لا معنى لان نحيا ولا معنى لان نموت » . ومن الواضح ان هذه الحججة تنطبق على د.ه. لورانس كما تنطبق على كتيبي التي كانت التلجراف تعنيها في مقالها . ان الدفاع عن دي صاد ايضا امر ممكن لانه هو الاخر رأى ان الجنس يحتوي بشكل ما على معنى الوجود الانساني . من الحق ان ثمة اخطاء جوهرية فسي تفكيره - الفشل في التفكير في « قانون ردود الافعال المتلاشية » ،

هذا الفشل الذي يفسد عمله ويخيب مسعاه في التحليل الاخير وهذا اثر عجيب من آثار الاخطاء الشهيرة ، مثل نظرية الكون التي تقول بان الارض هي مركزه ، او نظرية عنصر الفلوجيستون الذي قيل يوما انه اساس الخليفة ، ويبقى هذا الخطأ في صورة رمز نافع للخلل الذي يمكن ان يكتسب شيئا من الاهمية . والجنس يقدم ايضا نقطة بداية ممتازة لفلسفة وجودية . يقول « كيريلون » ، احد اباطل دستوفسكي انه اذا لم يكن هناك اله ، اذن فان الانسان اله ، وعليه ان يثبت هذا ، ثم ينطلق بهذا المنطق حتى يصل الى الانتحار . اما دي صاد فانه ينطلق به حتى يصل الى الدفاع المطلق عن اللااخلاقية . وفي كلتا الحالتين يستطيع المرء ان يبدأ في مناقشة مثمرة .

انني احس بادب الدعارة الحقيقي حينما اقرأ كتابا معينة لن يفكر احد مطلقا في منعها - كتب من نوع : « لا زهور اوركيد من اجل ميس بلانديش » او « صانعو الابسطة » او حتى بعض روايات جيمس بوند . يتهم فورستر جيمس جويس بمحاولة تفضية الكون كله بالوحل . ولكنه كان مخطئا . ان ما يبدو في رواية « يوليسيز » من عنف وقذارة وضع عمدا وقد قصد به ان يؤثر تأثيرا عكسيا ، مثل دواء قابض ، ويعترف جويس نفسه بقرابته للكتاب سوبفت اما جيمس هادلي تشارلز وهارولد روبينز فقد مارسا الكتابة لكي يمنعا القراء فقط ولكي يربحا النقود عن طريق الامتاع . ان الجنس والعنف - والعنف بشكل خاص - يقصد منهما ان يجعلوا الوجبة اكثر لسذة وشهية . انهما مثل حراس بيوت الدعارة وملاكها الذين يسدون استعدادهم لخدمة اي شخص مستعد للدفع . فاذا جر المرء حججه الى ضوء المناقشة ، يجدها نسخا اخرى من حجج دي صاد ، مثل فولتير او اي وضعي منطقي حديث اخر ، الذي كان يهاجم الافكار « الميتافيزيقية » عن الطيبة والخير . انه يقول قولة مؤثرة : « يقول الناس ان الفضيلة ، وانكار الذات ، والتضحية بالنفس ، والسروح العامة والشرف والشجاعة ، كلها خير . اما انا فاقول ان هذا ليس سوى تفكير مختلط مشوه . فاللذة وحدها هي الخير بالنسبة لاي واقعي متمثل التفكير » . ان ما يوشك حيثن ان يفعله هو ان يرفض نفسه بمحاولة توضيح فكرته في اقصى امتداد لها . والشيء الوحيد الذي يدهشنا هو انه لم يصب هو نفسه بالضحجر الى حد المرض قبل وقت طويل من اكمال روايته « جوليت » . على انه من الواضح انه كان يدرك القيم التي كان يحاول ان يفرسها وان يبعث فيها الحياة .

لا أحد الآن ينتقد كونان دويل او رايدر هاجار لانهما لا يتمتعان بالعمق الذهني الذي تمتع به توماس مان او الدوس هكسلي . فلقد خرجا الى الناس باعتبارهما « مسليين » او مسامرين و« القيم » التي دافعا عنها ، الشرف والشجاعة وما الى ذلك ، هي من القيم التي لا يمكن الاختلاف حولها بأي حال . ومنذ زمن ظهورهما ، اصبح الكاتب المسلي او « المسامر » اكثر واقعية ، واكثر تعقيدا من الناحية الثقافية . ولكنه لسوء الحظ لم يصبح اكثر تعمقا في التحليل الذهني - انه يرفض القيم الاقدم عهدا - ولكنه لا يفعل ذلك باسم عقل باحث لا يكل عن طرح الاسئلة ، وانما فقط باسم تسلية : « اعطاء الناس ما يريدون » . ولكن رفض القيم - اذا كان لهذا الرفض ان يكون نشاطا مفيدا - يجب ان يكون واعيا تمام الوعي بطبيعته الخاصة . اننا حينما نلتقي باناس يؤمنون بآراء لا يريدون التفكير فيها ، فاننا ندعوم بحق اغبياء او متعصبين . والاعتراض على مثل هذا النوع من القاء او التعصب ، هو انه بشكل ما نوع من « انكار الحياة » . انني املك جهازا هضميا ومخارج للتعامل مع الطعام الذي احتاجه لكي يبقى على حياتي . واملك ايضا جهازا هضميا عقليا ومخارج للتعامل مع تجاربي . ونموي باعتباري كائنا - التثمة على الصفحة ٦٥ -

الادب بين الجنس والدعارة

تابع المنشور على الصفحة - ٣٢ -

انسانيا انما يعتمد على هذا الجهاز مثلما يعتمد نموي الجسدي على الجهاز البدني . فاذا ما انقلق او انسد اي من الجهازين ، فانني ساكون عرضة للتسمم البطيء . ان كتابا من نوع ايان فليمنج او هارولد روبينز لا يملكون أجهزة هضمية ومخارج للتعامل مع القيم التي يرفضونها . والنتيجة هي ان تفوح رائحة التعفن والتحلل ، رائحة جهاز تسده فضلاته التي ينتجها بنفسه . فاذا ما قرأ شخص ما اعمالهما لمدة طويلة ، كانت النتيجة هي الاحساس بالصداع ، بتسرب الدم من الدماغ ، بالعقم ، وهذه هي نتيجة الامسك القاسي .

وهذا القانون ينطبق بالطبع على عدد كبير جدا من الاعمال الادبية . يشعر المرء بنفس الاحساس بالعقم اذا قرأ طويلا رواية رومان رولان « جان كريستوف » او رواية بوديس « الذئب المنفرد » او حتى « الحرب والسلام » . هذه الكتب تمتلك جهازا هضميا، ولكنه ليس كبيرا الى الدرجة الكافية للتعامل مع مثل تلك التجربة الكبيرة . ومن الجدير بالملاحظة ان الجهاز الهضمي ليس - ببساطة - هو القدرة على التفكير المجرد . ان امثال هكسلي او مان اذكيا وعلى عمق ذهني كاث ، ومع هذا فان كتبهما تتصف بجمود غريب . ان الشيء الهام هو قدرة الكاتب على «مهاجمة» تجربته ، وليس مجرد ان « يعانيتها » ، وانما ان يتجاوزها . لا يمكن ان يبعث دستوفسكي على الضجر ، على الرغم من اسلوبه الوعر الثقيل واطالته المسهبة ، بسبب ما نشعر بما لديه من هذه النيران الملتته التي تحاول ان « تاكل » مادته ، مثل انسون يصهر خام الذهب .

هذا هو ما يحدد ما قلت عنه انه حدسي لطبيعة الادب الداعر . انه مرتبط بمسألة الجهاز الهضمي ، اننا لا نطمع طيور البط بالازر ، ولا نرضع الاطفال الصغار بالحلوى الثقيلة ، لاننا نعرف ان اجهزتهم الهضمية ان تصمد لمثل هذه الأطعمة ، فاذا فعلت هذا وأنا اعرف ما ستكون عليه النتيجة ، فاني اكون مدانا بتهمة الهمسال الاجرامي . وهذا هو ما ينطبق على كاتب ينتج خليطا لزجا رديء الطهو من الجنس والعنف ، هادفا بذلك الى الوصول الى « اكثر الفئات الهابطة شيوعا » من القراء .

وهذا هو أيضا ما يفسر السبب الذي يجعلني لا اعتبر كتابا من نوع « حياتي السرية » و« فاني هيل » او اعمال دي صاد من الادب الداعر الحقيقي . والملحك الحقيقي هو التساؤل عما اذا كانت تحتوي على هذا العنصر السام ، عنصر انكار الحياة . ان كتاب « حياتي السرية » بالغ الكتابة مليء بالتكرار بعدد قليل من مئات الصفحات الاولى ، ولكنه ليس اكثر تسميما من كتاب (هانسارد) او « سجل المؤنر » . فالفاص ، او الروائي في هذا الكتاب خشن وغبن ، ولكنه ليس قاسيا ولا وضيعا . وقد يعترض المرء على فيمه الاساسية على شعوره بان الجنس هو اكثر التجارب الانسانية اهمية . ولكن يستطيع المرء ان يؤمن بهذه القيمة او ان يرفضها . وليس هناك شي يمنع القاري من ان يضع احدى رباعيات بيتوفن على الحاكي بعد ان يقرأ اثنتي عشرة صفحة او نحوها ، وينطبق نفس الشيء على رواية « فاني هيل » . اما بالنسبة لدي صاد ، فان فراءته تثير رد الفعل الذي يمكن بالفعل ان يوسع من آفاق رباعية بيتوفن . اما المشكلة التي نواجهها مع هادلي تيشيز او هارولد روبينز ، فهي انه بعد قراءة عدد قليل من الصفحات ، فان المرء لا يعود قادرا على الاستمتاع بسماع بيتوفن . فاذا حاول المرء سماعه مع ذلك ، فان بيتوفن سوف يبدو شيئا غير متناسب مع هذا العالم الفارغ الشريب الخطير العنيف الذي نعيش فيه ، سوف يبدو في صورة « ملاك جميل لا فاعلية له » ، يعيش في عالم احلامه الموسيقي السخيف .

باختصار ، يتضمن الادب الداعر احساسا بالتحقير من شان القيم ومهانتها . واذا كان الفن معركة بين عقل الانسان والعالم المادي ، اذن فان كاتب ادب الدعارة يقف الى جانب العالم ضد عقل الانسان . ومن المهم ان نلاحظ ان كلا من فليمنج وهارولد روبينز وهادلي تيشيز يستقلون الجريمة مثلما يستقلون الجنس ، وكثيرا ما يبدو عليهم انهم يساوون بين الاثنين باعتبارهما نوعا من النشاط الهدام المدمر . وقد اشار برناردشو الى اننا نحكم على الفنان من خلال اعلى ذروة يبلغها ، ونحكم على المجرم بادنى قاع يهبط اليه . وهذا يعني ان الفن قد ينظر اليه باعتباره دفاعا عن اعلى ذروة يمكن ان يبلغها الانسان ضد ادنى قاع يمكن ان يتدنى اليه . والكاتب الذي يستقل الجريمة والجنس ، لا لشيء الا لان يثير القاري ويستفز مشاعره انما قد اصبح مدافعا عن ادنى تلك القيعان الظلمة . اما اذا مضى الى معالجة الجنس بالطريقة التي تجعله في سلة واحدة مع الجريمة باعتباره لحظة من اكثر لحظات الانسان انحطاطا ، فان اتهامه يصبح اتهاما مركبا .

★ ★ ★

ولكن ، فلنتطرق الان الى المرحلة التالية من المناقشة . سوف نلاحظ هنا ان كلا من توماس مان والدوس هكسلي قد انشغلا أيضا بالمعركة بين العالم المادي وبين العقل ، وان كلا منهما قد اتجه الى ان يكون انهزاميا ، مؤمنا بانهازم العقل في تلك المعركة . وأنا شخصيا كثيرا ما اشعر بان هكسلي كاتب مقبض مثل جراهام جرين ، لان العالم المادي عنده يبدو دائما قادرا على ان يكسب السباق به مقدار طول رأس واحد . انه يتحدث عن تأكيد الحياة ، ولكن شيئا من هذه الحياة المؤكدة - بشكل ما - لا يستطيع ان يصمد حتى النهاية في كتبه ، ان اناسه « المؤكدين » او الايجابيين يبدون دائما غير مهيجين واغبياء ، واصحاب الحساسية من شخصياته دائما ضعفاء . ونفس الشيء يصدق ايضا على توماس مان ، ولكن « موضوعيته » تجعل تلك السمات اقل في تأثيرها المقبض .

اذن ، فان انكار الحياة ، بينما يكون عنصرا اساسيا من عناصر الادب الداعر ، فانه ليس مقصورا على هذا الادب . وهذا يثير التساؤل عن المدى الذي يصل اليه صدق العكس . هل يكون الادب الداعر ممكنا اذا سمح بكن انكار الحياة قائما ؟

وهذا السؤال اكثر اهمية من مجرد مظهره . فان هذا التساؤل عن الاخلاقية والالاخلاقية ، عن الصحة والانحلال قد ظل يشغلنا لمدة تقرب من قرن كامل ، منذ ان بدأت مناقشات اسبن وزولا في ثمانينات القرن الماضي . وقد كانت حجج كل من الجانبين هي نفس الحجج تقريبا على الدوام . فقد كتب توماس جيفرسون منذ عام ١٧٨٢ - يقول : « هؤلاء الذين يعملون في الارض هم شعب الله المختار ... ان فساد الاخلاق بين جماهير المربين والمهذبين لهو ظاهرة لم يخل من بعض نماذجها عمر ولا امة من الامم » . ان تلك المجتمعات البسيطة البدائية الشبيهة بالجسد القوي الصحة . وان رفض « الفساد » لوظيفة آلية من وظائف الصحة . وحينما يبدأ الشيء « المريب » ، غير الصحي ، الفاسد ، في العثور على موطن وقدم ، فان هذا يعني - بحكم الامر الواقع - ان الانحلال قد بدأ . ان جسدي العضوي اذا ما بدأ يصبح اكثر سرعة في التأثر بالجرائم ، فانسني جدير باتخاذ الخطوات اللازمة لمعالجته ، لكي يستطيع ان يلفظ الجرائم ، ومن المؤكد انني ان اقبل تلك الجرائم على اعتبار انها تقدم فرصة لاحداث تغيير متع بديل لحالة الصحة الثابتة الدائمة المضجرة . وهذا هو الخط الذي يتبعه ماكس تورودو في كتابه « الاضمحلال » عام ١٨٩٣ . فلا بد ان نعرف الانحلال بصفاته الحقيقية ، فلا نسمع معه او نشجعه . ان كتاب شو الهجومي المضاد « صحة الفن » كان يحمل عنوانا فرعيا يقول : « كنف وفضح للهراد الشائع عن كون الفنانين من عناصر الاضمحلال » . ومن الممكن ان نلخص الحجة التي ساقها في الكلمات التالية : « ليس اضمحلالا ،

الشخصية .

ان قصة ما ، سوف تحكي نفسها لك اذا أنت سمحت لها بذلك .
اما الشخصية فلا بد ان يعيشها المؤلف . لقد كان على جوته ان « يصبح
هو » فيتر او ويلهلم مايستر بطريقة لم يعرفها شيكسبير في مطابقة
نفسه مع هاملت او الملك لير . ومع هذا ، اذا ولج المؤلف الروائي
« داخل » الشخصية ، فان الاحداث سوف تتطور حينئذ بشكل طبيعي ،
فيصبح ويلهلم مديرا لفرقة مسرحية ، ويصبح فاوست محسنا عاما
ومشرفا على مؤسسات خيرية .

هذا ، مع ضرورة ان تكون الشخصية واضحة الملامح محددة
القسمات . ولكن جوهر النزعة الرومانتيكية كان هو انقسامها الذاتي ،
احساسها بالافتقار الى هوية محددة واضحة . وببطء ، يخلي فيتر
السبيل لكي يأتي ستيفن ديدالوس ، ولكي يأتي « ماتي لورينس
بريجي » عند ريلكه ، ولكي يأتي روكانان عند سارتر وميرسو عند كامو ،
ثم يأتي اخيرا البطل الاستاتيكي الكامل - « ك » عند كافكا ، فالسمكة
لم تعد تملك قوة تعينها على السباحة ، ولا حتى على التقلب على
جانبيها ، فهي لا تفعل عند بيكيت اكثر من ان تشوق وهي تضرب بدليها .
هناك كسب تحقق في التفاصيل - فالعدسة المكبرة الان أصبحت على
بعد بوصة واحدة من انف السمكة - ولكن لم تعد القصة ممكنة القيام .
وبدون « القصة » ، كيف يمكن ان تكون هناك رواية ؟ .

لم يكن الحل الذي تقدم به جويس قابلا للتطبيق بشكل عام ،
وفي الحقيقة ، وبقدر ما اعلم ، كان هو الشخص الوحيد الذي حاول
استخدام « المنهج الميثولوجي » . لقد كفت الرواية عن محاولة حل
المشكلة ، وقد ارتدت الى مرحلة احدث عهدا ، وتصالحت مع ما حدث
لها من خسارة في وضعها ومكانتها .

وقد عبرت الدراما بأزمة مشابهة في القرن العشرين ، فقد انجرفت
هي الاخرى نحو النزعات الذاتية والرمزية والتعبيرية ، بل والسي
نوع من الكابوس المنعمد في مسرح القسوة عند آرتو . ولقد كسان
بريخت هو الذي حاول ان يقيم اتصالا جديدا مع البدايات ، مع منبع
البحر ومصدره . لقد بدأت الدراما بوصفها استعراضا ، بوصفها قصة
تروي على جمهور من النظارة يعرف انها ليست حقيقة من الواقع . اذن
فلماذا تحاول ان تتنافس مع السينما ؟ لماذا لا تحاول ان تحصل من
آفاقها المحدودة على افضل ما فيها ، اي في الحقيقة ان « تؤكد » وجود
الفجوة القائمة بين النظارة والمثليين ؟ كان بيتس يداعب نفس الفكرة -
فكرة مسرح الطقوس - ولكن بريخت كان يملك عبقرية المزج بين مسرح
الطقوس وبين منصة المحاضر ، بين صالة الموسيقى والرقص وبين
صندوق الصابون .

كنت قد كتبت عددا من الروايات قبل ان يخطر لي ان ما كنت
افعله هو ان ادفع تأثير « التفريب » البريختي الى مجال الرواية .
لقد بدأت روايتي الاولى « طقوس في الظلام » ببناء ميثولوجي مستمد
من الكتاب المصري : « كتاب الموتى » ، حتى طرأ لي اني اذا لم يكن في
نيتي ان استخدم اطارا نابعا بشكل طبيعي من المعاني الداخلية في
القصة ، فان الاجدر بي ان استخدم اطارا يمكن ان يقبله القارئ العادي
وهكذا اخترت قصة جرائم قتل جاك الخناق ، وبنيت القصة
السيكولوجية المثيرة . ولكنها كانت ما تزال بشكل اساسي روايسة
واقعية تقوم على تقاليد دستوفسكي في الواقعية . وفي الروايات
الاخيرة ، قصدت الى « عامل التفريب » بشكل واع اكثر عن طريق
اختيار اشكال تقليدية ، هادفا في نفس الوقت الى تأثير قريب جدا من
تأثير الاستعراض . ففي رواية « ضياع في سوهو » كان الاطار هو اطار
الرواية التصويرية ، وفي رواية « الشك الضروري » ، كان الاطار هو
اطار « الرواية البوليسية » ، وفي رواية « عالم العنف » كان الاطار
هو اطار « الرواية الكبيرة » الالمانية مع نفحات كوميدية مصاحبة تتخلل
البناء ، وفي رواية « طفيليات العقل » ، « حجر الفلاسفة » كان الاطار

وانما هو « تطور » . اما توماس مان ، الذي كان يكتب اولي افاصيله
فسي تلك الفترة ، فقد اتخذ موقفا اقل ايجابية (وهو الموقف الذي
تمسك به طيلة حياته) يقضي بانه : بينما يصبح الفن اكثر
حساسية ورقة ، فانه « يتطور » و « يضمحل » ، فالتطور هنا يعني
الاضمحلال ، اذا ما مضى الى ما وراء نقطة معينة . وقد قال شبنفلر
نفس الشيء في كتابه « اضمحلال الغرب » .

ولا يتفق شو مع هذا الرأي بصورة اساسية . لقد كان جديرا
بان يقول : « بالطبع ، ان التطور « يمكن » ان يعني اضمحلال ، اذا
ما زادت الحساسية على الحيوية . ولكن هذا لا يتبع ذلك بالضرورة » .
ومن الواضح ان هذا شكل آخر للسؤال الذي اترناه نحن بالفعل ،
لقد كان مان وهكسلي كاتبين زادت عندهما الحساسية على الحيوية .
لقد كان مان وهكسلي كاتبين زادت عندهما الحساسية على الحيوية ، فانهما
يجب - في النظرية - ان تكون قادرة على ان تزيد الحيوية الى الدرجة
المناسبة لها . ولكن لم يؤمن احدهما بامكان ذلك . ولكن هل هذا
صحيح ؟ ولنفترض ان لدي رأيا فجا وبالغ البساطة عن شيء ما . ان
النتيجة هي ان يصطدم رأسي بالحقيقة صدمة تجعلني اكثر حكمة - اي
اكثر حساسية - ولكنها صدمة ستجعلني - في لحظة وقوعها - اقل
ثقة واقل قدرة على اليقين والتأكيد . فهل ينبغي ان اظل على هذه
الحالة طوال ما بقي من حياتي ؟ من الواضح ان لا . اني ابدل مجهودا
عقليا ، اني « أتمثل » التجربة او اهضها ، واتأملها حتى امتص كل
معانيها ودلالاتها : اي حتى يمكنني السيطرة عليها . حينئذ تعود الثقة
وتفيض بنايحب الحيوية مرة اخرى . وهذا يعني القول بان الامر يعتمد
على نفس عملية « الهضم » التي نافستها بالفعل اثناء الحديث عن
الادب الداعر .

وهذه النظرة تقدم بديلا للموقف الجيفرسوني : ان البساطة والصحة
والثبات تمضي كلها معا وتصبح احدهما الاخرين . انك اذا قلبت
ميزان الثبات ، فسوف تقلب ميزان البساطة والصحة ، ولكنك عن
طريق مجهود معين وقدر معين من التفاؤل ، فان هذه الموازين يمكن ان
تستعاد في مستوى اكثر سهوا ، وسوف تكون النتيجة تطورا حقيقيا
واصيلا ، ان البندان ليست محافظة اشبه بانفاس الاقدام في الوحل
او اضمحلال سريع لا مناص منه .

قد تبدو النتيجة مجردة او مطلقة ، ولكنها بالنسبة لي كانت
ذات اهمية عملية مباشرة . فاني حينما بدأت كتابة روايتي الاولى ،
في اواخر سنوات العقد الثاني من عمري ، كانت تسيطر على نفسي
المشكلة التي دفعت جويس الى اختيار ملحمة الاودية يستمد منها بناء
لروايته المتداخلة الاطراف والتي تسودها الفوضى والتي تحدث عن
دبلين الحديثة . وقد عبر بيتس عن هذه المشكلة في الابيات الثلاثة
التالية :

سمكة شيكسبيرية تسبح في البحر ، بعيدا عن اليابسة ،
سمكة رومانتيكية تسبح في الشباك لتقترب من يد الصياد ،
ولكن ، ما كل تلك الاسماك الراقدة تشوق على رمال الشاطئ ،

ومعنى هذا هو ان الذن الشيكسبيرى قد رفع مرآة في مواجهة
الطبيعة : او ربما كان على المرء ان يقول انه رفع في مواجهتها عدسة
مكبرة ، وكانت وحدتها الاساسية هي الحدث او القصة . الشخصية
هامة ، ولكنها مهمة فقط « في اطار » القصة ، فان الامر - على اي
حال لن يهم حقا - سواء اذا كان هاملت هو الذي استبدت به الفيرة
فقتل زوجته ، ام ان لير هو الذي اصبح اميركودر . اما شخصية
فيتر عند جوته ، او « اوبرمان » عند سيناتور ، او هيريون عند
هولبرلين فان احدا لا يستطيع ان يحل محل اي منها ، لان كل واحد
منهم « هو » القصة . ان العدسة المكبرة تقترب اكثر ، حتى لا يعود
الحدث هو الوحدة الاساسية ، وتصبح الوحدة الاساسية هي

هو القصة العلمي الخيالي ، وفي رواية « الحجر الممتعة » كان الاطار هو رواية الجاسوسية (١٤) ، وفي رواية « القصة الزجاجي » عدت مرة اخرى الى اطار الرواية البوليسية .

اما الان ، فان الخطاب الذي دافع عني ضد اتهام كتابة الادب الداعر قد اثار في ذهني سؤالاً : وهل يستطيع المرء ان يستخدم شكل الرواية الداعرة التقليدية ، بطريقة كيلاند او ابوللووير ، باعتباره الاطار الاساسي لاحدى الروايات ، ثم يصل الى نفس التأثير التفريري؟ لقد حاولت شيئاً مشابهاً في رواية « رجل بلا ظل » ، (التي تم تغيير اسمها فيما بعد دون استشارتي الى « اليومية الجنسية لجيسرارد سورم ») وقد لاحظت في ذلك الحين ان الكتابة عن الجنس تعيل الى تدمير التأثير التفريري لان القارئ يصيح بنفسه وادخل فيما يقرأه . ولكن « اليومية الجنسية » لم تستخدم « شكل » الرواية الداعرة ، وانما شكل المذكرات الاعترافية ، لقد كانت رواية افكار لا تأخذ الجنس الا باعتباره نقطة انطلاقها . ولكنه نوع من التحدي الممتع ، لان رواية الادب الداعر اكثر صراحة من الناحية الشكلية من اي نوع روائي آخر يمكنني ان اتذكره ، انها تتمتع بشيء من الصراحة الرمزية التي يتصف بها الباليه . وهذا شيء افضل ما يكون من اجل انتاج التأثير التفريري . والتحدي الموجود هنا بالطبع ، هو ان تصفي الحياة على البنساء . والمشكلة القائمة في رواية الادب الداعر التقليدية - ورواية «جوستين» يمكن ان تؤخذ هنا كمثال - هي ان المرء يعرف انها سلسلة من « القطع المستقلة » يربطها خيط قصصي معتسف مفروض عليها ، مثل احدي اوبرات مونتفيري . وانا اكثر اهتماما بكثير بالقصة والافكار مني بالقطع المستقلة المتعللة الارتباط . ولا بد لي ايضا من الاعتراف - ونحن بصدد الحديث عن الشكل - بان هذا الكتاب (اله المتأهه) لا يخضع لقواعد رواية الادب الداعر بقدر ما يخضع لقواعد القصة البوليسية - ويوجه خاص لقواعد القصة البوليسية الادبية من النوع الذي شاع في روسيا على يدي الكاتب ايركلي اندرونيكوف . وحكاية « جماعة العنقاء » فمت بتطورها اعتمادا على اشارة عابرة وردت عند جورج لويس بورجيس . وفي الحقيقة ، اذا صح ان يقال ان روايتي « غازات العقل » ، « حجر الفلاسفة » قد استعارتا الميثولوجيا التي وضعها « ه. ب. لوفركرافت » ، فان هذا الكتاب يمكن ان يقال عنه انه قام على اساس من اشارات بورجيس ذات الطابع الميثولوجي .

ان نجاح هذه الرواية او فشلها باعتبارها تمرينا في المعالجة التفريرية ، لا ينبغي ان ينظر اليه كمقياس لقيمة هذا النوع من المعالجة . وانا مفتنع بان حل مشكلة السمكة الشيكسبيرية ، ومشكلة السمكة المطروحة على الشاطئ انما يمكن في تطبيق طريقة التأثير التفريري على الرواية ، سواء نجحت هذه الطريقة او فشلت في هذه الحالة بعينها او تلك ، ولكنني يمكنني ان اقول - محتجا - بانها اذا « امكن » ان تنجح في هذه الحالة ، فانها يمكن ان تنجح في اي مكان آخر .

هناك نقطة اخيرة ، اثيرها بشيء من التردد ، طالما انها تبدو لي واضحة . فنحن حينما ننمو لكي نخرج من طور الطفولة الى الرجولة ، فاننا نجد مجالات جديدة من التجربة يمكن الا تكون عملية او غير مرغوب فيها بالنسبة للطفل ، من شرب الكحوليات والتدخين ، الى تسلق الجبال والاستماع الى الرباعيات الوترية . ان الجنس يقف خارج كل انواع التجارب الاخرى باعتباره تجربة لا بد ان تعالج في شكل سر من الاسرار ، كما لو كانت طقسا قريبا غربيا يتضمن اسما لا يصح ان ينطقه اللسان .

وقد يكون هذا امرا جوهريا بالنسبة لبعض القبائل البدائية او

المجتمعات الابوية (البطريركية) ، ولكن الى اي مدى يمكن ان يكون امرا مرغوبا فيه بالنسبة لحضارة مثل حضارتنا ، هدفها الاساسي (مهما كانت كآبة وتشاؤمية ما يقوله المؤرخون) هو « الخلاوة والنور »؟ لقد كان تطور الحضارة الغربية هو تطور العقل ، رفض العنصر القطعي الجامد والسلطوي المتعسف في الدين ، وايضا (فيما نرجو) فسي السياسة ، وهذا التطور لم يتوقف حينما رفضت انجلترا سيطرة البابا ، او حينما رفض فولتير المسيحية . وحتى رسالات نيومان واوكسفورد ينبغي ان ينظر اليها باعتبارها تطورا لنفس الاتجاه ، اصرارا على مطالب عقل اكثر رقة وتهذبا وعمقا متعلقة باحتياجات الانسان الميتافيزيقية . وقد كان على فرويد ان يخوض نفس المعركة ، كان عليه ان يكبح سيطرة المحرمات الاجتماعية والقيود الصاغطة وان يفهرها بهطلب الصراحة وانفتاح العقول ، وكذلك فعل د. ه. لورنس . ويمكن ان ننظر الى معسكرات الابادة النازية باعتبارها محاولة للعودة الى شكل للمجتمع اكثر بدائية - وغير معقد - حيث تحل المشاكل عن طريق القوة والعقائد الجامدة القاطعة ، وليس عن طريق العقل .

يبدو لي ان هذا التطور يفترض بشكل مسبق فرضا انسانياما : ان « التحريم » رديء في حد ذاته ، رغم انه قد يؤدي في بعض الاحيان الى الخير في مجال محدود . فعلى سبيل المثال ، فان جرائم القتل الجنسية لا يرتكبها اناس يفكرون في الجنس ويتحدثون عنه دون كبت ، وانما يرتكبها اناس تصاعد عندهم الاحباط حتى وصل الى درجة الشيء المحرم الشديد الاغراء . ولذلك لا ينبغي ان نخلط بين « التحريم » والنظام الذي هو بشكل اساسي عنصر محرر . ان جيشا جيدا يشبه آلة جيئة التشحيم ، ونظامها هو العنصر الذي يسمح لها بان تسدور دون عوائق او عقبات .

واذا كان كل هذا صحيحا - وانني لاجد انه من الصعب ان تصور اي شخص عاقل يمكن ان ينكره - اذن فلا بد ان يتلو ذلك انه ينبغي للراشدين الناجحين ان يكونوا قادرين على التفكير في التجربة الجنسية مثلما يفكرون في اي شكل آخر من اشكال التجارب - في الفن او العلم او الرياضة او المفامرة . حينما فرات رايدرهارارد فسي طفولتي - شعرت بالانفصال والمشاركة في وقت واحد . جاء الانفصال من الجلوس على مقعد وانا اقرا كتابا جامد الحركة ، ولكن الاستشارة جاءت من السير عبر الاحراش المليئة بالشعابين مع البطل آلان كاترين . وهذه هي الخاصية الجوهرية للتجربة المنحضرة: «الانفصال» و« المشاركة » . ولكن حيث يتعلق الامر بالجنس ، لا تزال هذه الفكرة بعيدة عن القبول . فمن المفترض فينا اما ان نكون مشاركين بشكل مباشر - في الفراش مع شريكنا في الجنس - او بعيدين منفصلين بشكل كامل ، اي مثلما يحدث حينما اقرأ عن حائتي في كتب هافلوك اليس ثم اغمغم قائلا : « يا له من امر ممتع ! » هنا يبدو عنصر سخيف ولا معنى له . لقد عاش معظم القراء الراشدين التجربة الاساسية التي وصفها كيلاند او د. ه. لورانس ، وعلى العكس الفسوة او الجريمة ، لا ينظر الى هذه التجربة باعتبارها شيئاً غير مرغوب فيه من الناحية الاجتماعية . فهل هناك حقا مثل هذه الهوة بين موضوع الجنس وموضوعات من مثل التاريخ او المفامرة او الرياضة ؟ هل هناك اي سبب يمنع الراشدين ، اذا كان هذا هو احتياجهم العقلي ، من القراءة عن الجنس مع الاحساس بالانفصال ، او التفكير ، او حتى مع قدر معين من الاحساس بالمشاركة ؟ اننا اذا كان بوسعنا ان نقول عن شيء ما انه « صادم » دون ان نعني انه قبيح او شرير ، اذن فانها تبدو لي كفكرة متمسكة ان استخدم هذا الشيء لكي اصدم اكثر عدد ممكن من الناس ، حتى يفقد تأثيره الصادم ، وحتى يمكن ان ننظر اليه بهدوء ودون تشويه . ففي مجتمع متحضرا حقا - ونحن ما نزال بعيدين عنه - لن تكون هناك كتب محرمة ، ولا افكار محرمة .

ترجمة سامي خشبة

(١٤) لم تكن قد نشرت وقت كتابة هذه السطور .